أمهات الرجال

تأليف

بيرسيفال وايلد

العنوان الأصلي للمسرحية

MOTHERS OF MEN

by: Percival Wilde

حجرة استقبال تتميز بالرونق والفخامة، أثاثها فاخر وفرشها أنيق ولوحاتها الزيتية لا تقدر بثمن، وسجادها سميك تغوص فيه الأقدام، وباختصار كل ما فيها جميل ونفيس وينم عن ذوق رفيع. ولك أن تتخيل أيها القارئ العزيز الصورة المغايرة لتعرف ما نحن بصدد وصفه، فلا يصدم عينيك هنا أي شيء رث، ولا تشوب نظافة المكان ذرة من الغبار، ولا غرو فلطالما افتخرت السيدة شيبستو بحسن ترتيب وتدبير منزلها، وأحست بالازدراء الشديد في حال تعرض أي جزء منه للانتقاد. وعلى الرغم من ذلك يحتفظ الأثاث بتأثير عجيب يجمع بين الراحة والأناقة في توافق وانسجام. اهتم السيد شيبستو بكل ما هو قديم، لكن أرملته جاهدت لتضفي شيئا من الحداثة، فجاءت النتيجة – كما ترى – غريبة الأطوار، وربما زادت غرابتها لو أتيحت لهذه العائلة أموال أوفر. ترى الحجرة وقد اكتظت بالعديد من قطع الأثاث غير المثبت ذات التصميم المتواضع والصنعة الرخيصة، ولولا اهتمام رب المنزل وعنايته لتداعت هذه القطع منذ أمد بعيد، ولولا هذه الصيانة المتواصلة لما احتفظت هذه القطع بقدر من أصالتها وعتاقتها وتحملها وأناقة العصر الفيكتوري الذي تنتمي إليه. «لا يضاهي مكان على وجه البسيطة دار المرء»، هكذا تغنى الشاعر، ويمكننا الجزم بصدق هذه الكلمات وسلامة الاعتقاد بصحتها حتى للآلاف ممن هم على شاكلة مايدا فَيل الذين يمتلكون وحدة سكنية مكونة من غرفتين. كم تفتخر مايدا أو السيدة شيبستو بشقتها التي يمكن أن تميزها عن أترابها من أول وهلة، وكم تبتهج وتستمتع بها. وتبلغ السيدة شيبستو التي تبدو في صورة جيدة نيفا وخمسين سنة، وتنتمي هذه الأرملة إلى الطبقة الوسطى كما تعكس ملامحها، فلطالما اعتبر السيد شيبستو نفسه جزءا من العمود الفقري للأمة البريطانية، ودأب على ترديد ذلك مرارا وتكرارا وهو جالس في محل تجارة الحديد الذي يمتلكه بشارع لودغَيت هِل. وعاشت الأرملة على سمعة زوجها، وهاهي جالسة في مقعدها المريح تحيك بالإبرة في ظهيرة يوم منعش من أيام شهر أكتوبر، وقد أطلقت العنان لأفكارها لتجول في أروقة الماضي بين زهو وضجر ومد وجزر وارتفاع وانخفاض، ثم تفيق على وخز الحاضر وغصته، فلديها – شأنها في ذلك شأن مئات الآلاف من الأمهات في بريطانيا – ابن يحارب في مكان ما في فرنسا، وتتوق نفسها إلى رؤيته حتى لو بذلت في سبيل ذلك الغالي والرخيص. ينطلق جرس الباب فتطوي السيدة شيبستو ما بيدها بعناية، ثم تنهض وتغادر الحجرة. نسمع صوت فتح الباب وهمهمة أصوات تصبح أكثر وضوحا كلما اقتربت من الحجرة.

السيدة شيبستو : تفضلي هنا.

(تفتح الباب الذي يفضي إلى حجرة المعيشــة. تدخل امرأة فــي نفس الســن، لكن أفضل في وضعهــا الاجتماعي، إذ يمكن تخمين هذا من ملابسها الأنيقة)

نعم. ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

(تبدو الزائرة فــي حالة من الإثارة والارتباك، بل والخوف الذي ســبب لها رعشــة منعتها عن الكلام بشــكل رصين. تتبين السيدة شيبستو ذلك)

هلا تفضلتِ بالجلوس؟

(تقدم لها مقعدا)

الزائرة : (تجلس متنفسةً الصُّعداء) شكرا لك.

السيدة شيبستو : كوبًا من الشاي؟

الزائرة : لا. لا.

(السيدة شيبستو متجهة صوب طاولة الشاي)

السيدة شيبستو : سيستغرق إعداده دقيقة واحدة.

الزائرة : لا. لا. لا أستطيع تناول أي شيء.

(تخيم لحظة صمت، ثم تسعى السيدة شيبستو إلى تلطيف الجو)

السيدة شيبستو : الطقس لطيف هذه الأيام، أليس كذلك؟ وغريب بالنســبة إلى هذا الوقت من العام. واستمتعت أمس بالمشي، لا أعلم متى استمتعت بشيء كهذا من قبل.

الزائرة : نعم. نعم.

السيدة شيبستو : انطلقت في باكورة الصباح المشرق إلى (تعد على أصابعها)

أبيركــون ثم طريق آبي فطريق مارلبــورو، ومنه إلى طريق الملكة في اتجــاه متنزه برمروز، ثم العودة عبر طريق بارك سنيت جونزوودز. أحسست بالانتعاش بدرجة كبيرة.

(تتوقف عن الكلام)

الزائرة : (تشرع بشــكل مفاجئ في الإفصاح عن سبب زيارتها) هل أنت السيدة ألبرت شيبستو؟

السيدة شيبستو : أجل.

الزائرة : أنا السيدة هوارد شيبستو.

السيدة شيبستو : (بشــيء مــن الاهتمام) عجبا! لدينا الاســم نفســه برغم غرابته، أليــس كذلك؟ هل تعود أصــول عائلة زوجك إلى لانكشاير بأي صورة من الصور؟

الزائرة : (باذلة بعض الجهد) كلا، ديفون.

السيدة شيبستو : (بشــيء من الإحباط) لم أكن أعلم بوجود أفراد من عائلة شيبســتو هناك. (بثقــة) لزوجي عمة تهتم كثيــرا بتاريخ العائــلات، ويمكنها تتبع تاريخ عائلة شيبســتو حتى الغزو النورماندي (١٠٦٦). كانت ستسر كثيرا بمعرفتك.

الزائرة : (تقاطعها على حين غرة) سيدة شيبستو، لقد وصلني هذا البارحة.

(تبحث في ارتباك عن شــيء في حافظة النقود والمفاتيح، ثم تخرج خطابا مختوما ومدموغا بشعار صاحب الجلالة، وتناوله للسيدة شيبستو التي تدرك فحواه قبل أن تفضه)

السيدة شيبستو : أيتها المسكينة!

الزائرة : (تنخرط في البكاء) تعرفين إذن هذا الشيء؟

السيدة شيبستو	:	كل امــرأة في المملكة تعرف هذا الخطاب وتخشـــى اليوم الذي يُكتب عليها فيه أن تتســلم واحدا مثله. (تهز رأســـها في تعاطف) فيمن كان مصابك؟ زوجك؟
الزائرة	:	(بـــين الزفرات والعبـــرات) لا. لقد مـــات زوجي منذ عدة سنوات.
السيدة شيبستو	:	إذن هو ابنك؟
الزائرة	:	أجل ابني. ابني الوحيد.
السيدة شيبستو	:	حقيقة لا أدري ماذا أقول لك. (بعد برهة من الصمت)
الزائرة	:	انقطعت مراسلاته مدة أسبوع، ثم أتى هذا الخطاب. سقط قتيلا في لاباسيي في التاسع والعشرين من سبتمبر.
السيدة شيبستو	:	التاسع والعشرين؟ عيد القديس مايكل.
الزائرة	:	ما الفرق! لقد صار هذا اليوم من الآن فصاعدا أسوأ أيام العام بالنسبة إلي. ذهبت إلى المسرح في مساء هذا اليوم. ربما كان الخطاب في طريقه إليَّ في هذا التوقيت. وصلني أمس مع شــحنة البريد الأولى. لا يمكنك تخيل حالتي منذ تلك اللحظة.
السيدة شيبستو	:	(بصوت خفيض رقيق) بل أتخيل ذلك، فلدي ولد بالجبهة. (تصمت لحظة وتبتسم ابتسامة حزينة. لاتبدي الزائرة من جانبهـــا أي ملحوظة ولايصدر عنهـــا أي تعليق) لم يتطوع فـــي الأيام الأولى للحرب، فهو وحيـــدي كما ترين ولم أكن متحمسة لذهابه، ولأن كلينا فقط يعيش هنا فقد غلب علي الظن أنه تقع على عواتـــق الأمهات اللاتي لديهن أكثر من ولد مسؤولية إرسال بعض من فلذات أكبادهن إلى الحرب. ليس لدي غير «توم». تناقشـــنا في الأمـــر. كان راغبا في التطـــوع. أخبرني أن إنجلترا تحتاج إلى كل من يمكنه حمل

الســـلاح. نظر إلي وجال ببصره بين جنبات بيتنا الصغير الدافئ. أظنه قرأ تعابير وجهي ونظرات عيني ساعتها، إذ قرر أن ينزل علـــى إرادتي ويرجئ الأمر بعض الوقت. عاد في مســـاء يوم إلى البيت ليخبرنـــي أن أصدقاءه انخرطوا في ســـلك العسكرية، وأن «ديكي فيتزجيرالد» قد رقي إلى درجة عريف، وكيف أن رفيقه ضخم الجثة «ول تيبر» الذي أوسعه توم ضربا في المدرســـة والذي اعتقد الكثيرون أنه لن يرقى إلى شـــيء ذي أهمية قد حصل على وسام صليب الملكة فيكتوريا! ثم راح يمســـك بالصحيفـــة ويخبرني بأن «كيتشـــنر» في عوز إلى المزيد من الرجال. كنت أعرف أن هذا اليوم لا محالة آت، لكني تمالكت نفسي قائلة: «نعم يا تـــوم. لقد ورثنا ماضيا تليدا من الجندية»، تدرين .. حارب جده في شبه جزيرة القرم، وتجري في عروقه هذه الدماء التي لم أفلـــح بمفردي في تهدئة فورتهـــا. لزمت الصمت وتوجهـــت إلى خزانة الملابس لأتأكد مـــن أن لديه ملابس داخلية وجوارب تقيه برد الشـــتاء. وانتظرت لحظة رحيله كل يوم مع حلول المســـاء. في صبيحـــة يوم من أيام الآحاد فرغ توم مـــن إفطاره وأزاح الصحن جانبـــا ثم من دون أن ينبس ببنت شـــفه نظـــر إليَّ نظرة أدركـــت معناها ورأيتها مرارا وتكرارا في أحلامي، لتوقظني فزعة مرتعشة متمنية أن يكون الأمر مجرد كابوس، لكني قلت: «أجل يا توم».

(تحني رأسها وتصمت لحظة)

أخذنـــي بين ذراعيه، وشـــببت على أصابـــع قدمي، لأقبل شـــفتيه، فبادرني: «يا أمي الصغيرة. ســـوف أرحل غدا»، فأجبته: «نعم يا توم» فرفع كتفيه قائلا: «هناك أمور يجب أن يتحمل الرجل تبعاتها». في مســـاء اليوم التالي جلست وحدي أتناول العشاء.

الزائرة : (برفق، بعد مرور برهة) أعرف هذا الإحساس.

السيدة شيبستو : (تومئ برأسـها ماسحةً عبراتها) روضت نفسي على قبول واقع أن في الجبهة العديد من فلذات الأكباد الذين يمثلون كل شـيء لأمهاتهـم، لكننا نميل إلى عـدم تصديق ذلك.. وهذه هي ضريبة الأمومة.

الزائرة : (وكأنها تحدث نفسها) كلهن سواء، أليس كذلك؟

السيدة شيبستو : (مـن دون أن تجيب) كان القلق ينتابني من جراء شـجاره عندما كان في المدرسة. لم يكن ولدا سيئ الطباع، لكنه كان مولعا باللعب والمناكفة، ويجد دائما ما يشغله. (تبتسم)

في أحد الأيام عاد إلى المنزل وكله جروح. تسـلق سـارية العلـم ثم تزحلق عليها بسـرعة. لو أتى أي شـخص بهذه الفعلة لخرج منها برجل مكسورة على أقل تقدير، لكن توم لم ينزعج بالمرة، ولـم يكن يضيره أن يفعلها ثانية لو نحينا ألم الجـراح جانبا. في يوم آخر وقع مـن النافذة، إذ كان يتبـارى مع أترابه، من يا تري يمكنه أن ينحني من النافذة بمسافة كبيرة. حسم المنافسة لمصلحته، لكنه سقط...

(تتوقف برهة ثم تستأنف)

حسـن. بعد وقوع بضع من الحوادث على شاكلة ما سردت أدركت في قرارة نفسـي أن توم لم يكتب عليه أن يقتل وإلا لأودت هذه الأشياء بحياته منذ أمد. وهذه هي الفكرة التي تسكن رُوعي اليوم وتدخل الطمأنينة إلى نفسي.

(تباغت باب الذكريات فتوصده)

أرجو المعذرة. لقد نأيت بتفكيري، فشغلني عن وجودك.

الزائرة : لا تعتـذري. لقد كنت أفكـر في ابني على نفـس الوتيرة والمنوال.. مشاكسـاته في مدرسـة إيتـون وعللها؟ مجرد التفكير فيها يجعل شعر رأسي يقف خوفا ورهبة. ولم يكن

أمره أحســن حالا في جامعة كيمبردج. فبعد ســتة أشهر مــن دخوله هذه الجامعة أصيب في رأســه في أثناء لعب البولو.

السيدة شيبستو : كان ابنك يلعب البولو؟ (بسذاجة) لا بد أنكم أثرياء.

الزائرة : (في خجل) لقد كان السيد شيبستو موسرا.

السيدة شيبستو : (في تشــوق للمعرفة) ماذا كانت صنعته؟ زوجي كان يتاجر في الحديد.

الزائرة : لم يكن لديه عمل.

السيدة شيبستو : (مندهشة) ماذا؟

الزائرة : لقــد كان رجلا ذا أصــول نبيلة وصاحب ثــروة تغنيه عن الكدح والعمل.

السيدة شيبستو : (تحت تأثير انطباع قوي) رجل نبيل غني! ما رأيك؟

(تهز رأســها) لقد تمنيــت دوما الثراء فقــط من أجل أن ينعم ابني بهذه الأشــياء على غرار إيتون وكيمبردج والبولو والتي لم يكن في مقدوري ولا في وســعي أبدا توفيرها له. (شــاخصة إلى الزائرة باحترام زائــد) مؤكد أن ابنك كان ضابطا بالجيش.

الزائرة : تطــوع في اليوم الذي أُعلنت فيــه الحرب. كان غضا قليل الخبــرة. كان بإمكانــي أن أحصل له علــى تكليف ليخدم كضابــط بالجيش، لكنــه رفض الفكرة متعلــلا بأنه ليس جديرا بقيادة الرجال الذين يفوقونه حنكة ودراية.

السيدة شيبستو : (بإعجاب) فكر طيب وصنيع حسن، أليس كذلك؟ مؤكد أنه أُلحق بأحد معسكرات التدريب.

الزائرة : نعم.

السيدة شيبستو : لقد فعلوا الشـــيء نفسه مع ابني. ضُم إلى أحد معسكرات التدريب مع الصفوة ثم...

الزائرة : إلى فرنسا؟

السيدة شيبستو : (بنبرة مختلفة) نعم إلى فرنسا.

(تسود فترة صمت يبدو خلالها على الزائرة بوضوح انشغال البال وتعكر المزاج، ثم تواصل بشكل مفاجئ)

الزائرة : سيدة شيبستو. لا أدري كيف ستتقبلين ذلك، ولكن...

السيدة شيبستو : نعم؟

الزائرة : إنك تضفين لمســة من الروعة على كل ما أفضيت به، وهو الأمــر الذي يجعلني لا أعرف كيف أبدأ طرح ما جئت إلى هنــا خصيصا لأقوله. (تتوقف بين اللبس والغموض، بينما تلزم الســيدة شيبستو الصمت. تواصل الزائرة بجرأة) هل تعرفين شخصا يدعى سافورد؟

السيدة شيبستو : سافورد؟

الزائرة : الملازم النبيل سيسل سافورد.

السيدة شيبستو : النبيل؟ كيف تتأتى لي معرفته؟

الزائرة : (تتحاشى أنظار السيدة شيبستو) لقد أصيب إصابة بالغة منذ فترة مضت أقعدته عــن الحركة فبقي حبيس المنزل. كان يخدم مع ابني في الفوج نفسه عندما وصلني الخطاب توقفت ببابه للزيارة.

السيدة شيبستو : (في توقع) وأخبرك أن ابنك مات ميتة بطولية.

الزائرة : (تقاطعها في شيء من الإثارة التي تحوي في باطنها بعضا من الفظاظة) لم يكن قد ســمع بهذا الأمــر، لم يعلم عنه

شـــيئا حتى اللحظة التي أخبرته فيها. لقد ترك الفوج بعد إصابته كما أخبرتك.

السيدة شيبستو : آسفة. لقد نسيت.

الزائرة : لقـــد أصابه الخبر بالصدمة. كان وابني صديقين حميمين منذ تعارفا في كيمبردج، لكن فجأة خطر بباله...

(تتوقف عن الكلام)

السيدة شيبستو : (تستحثها على المضي في الحديث) نعم؟

الزائرة : (تشيح بوجهها) لا أدري كيف ستتقبلين قولي، وهو لعمري مهول. (باســـتماتة اليائس) لكنـــي أم – كما تعلمين – وهو ابني الوحيد. تذكر الملازم ســـافورد فجـــأة أنه كان هناك شاب آخر بالفوج يحمل الاسم نفسه.

السيدة شيبستو : (تنهض مذعورة) اسم ابنك نفسه؟ ماذا تعنين؟

الزائرة : (تنهض هي الأخرى) اسم ابنك هو توم شيبستو؟

السيدة شيبستو : بمعنى؟

الزائرة : (تواجهها بشفتين منطبقتين)

هذا هو الاسم!

السيدة شيبستو : (بنحيب) كيف تجسرين؟

الزائرة : (بتصميم شديد) كل الخواطر واردة لأم ثكلى. الاسم نفسه. الفوج نفسه. ربما كان في الأمر خطأ.

السيدة شيبستو : كيف تجرئين؟

الزائرة : القتيل هو ابني أو ابنك!

السيدة شيبستو : لم يُكتب على ابني ان يموت قتيلا.

الزائرة : كان عندي الاعتقاد نفسه بالنسبة إلى ابني.

السيدة شيبستو : لكني أعلم!

الزائرة : ذهبت إلى وزارة الحرب وهناك أخبروني...

السيدة شيبستو : (مقاطعة) أنه لا يوجد خطأ؟

الزائرة : (مؤكدة) أنهم سيسعون إلى التأكد من الأمر. (تفتر همتها وتخور عزيمتها فجأة) اسمعيني يا سيدة شيبستو، لقد حاولوا التأكد خلال الأربع والعشرين ساعة التالية لذلك، وكدت أصاب خلالها بالجنون. مرت علي وأنا أنتقل بين هدى وضلال من موظف وآخر. لا بأس بهم. يتعاملون بود ولطف، لكنهم لا يعرفون.. (بتهكم مثير للشفقة) وسيسعون إلى التأكد! في غضون ذلك..

(يلم بها الكرب والألم فتتوقف عن الحديث)

السيدة شيبستو : (تستعيد قدرا من اتزانها ورباطة جأشها) ليس ابني. لقد وصلني منه خطابٌ أمس.

الزائرة : لقد وصلني خطاب من ابني اليوم!

السيدة شيبستو : (فزعة) لا!

الزائرة : مؤرَّخ بتاريخ الثامن والعشرين.

(بينما تلقي السيدة شيبستو بنظرات الشك والريب، تفتش الزائرة بارتباك في حقيبتها وتخرج ورقة مجعدة) ألا تصدقين؟ اسمعي: «أمي العزيزة» (تختنق بالدموع فتتناول السيدة شيبستو الخطاب)

اقرئيه بنفسك إذا شئت.

السيدة شيبستو : (تتراجع في فزع) لا. لا.

الزائرة : لم أستطع تحمل كل هذا بمفردي. كان الأمر أكبر مما أحتمل، فقصدت بابك، لذا يجب أن تسمعيني. إنك المرأة الوحيدة في العالم التي يتعين عليها أن تشاركني هذه المحنة.

السيدة شيبستو : (بتعبيرات الاشمئزاز) أيتها المتوحشة.

الزائرة : لديك حق! سبيني كما يحلو لك، وانعتيني بأفظع الأوصاف. أقدِّر ما تشعرين به، ولو أني مكانك لتملكني الشعور نفسه، لكن لا بد مما ليس منه بد. شاهدت في وزارة الحرب مئات الأمهات يَنْشُدْنَ معرفة الحقيقة، يجرين من موظف إلى آخر ومن باب إلى آخر بغية الوصول إلى اليقين. لم يكن لديهن الوقت لسماعي. كن مشغولات عني بقصص همومهم، لكن ينبغي عليك أنت أن تسمعيني!

(تسود فترة توقف وجيزة)

السيدة شيبستو : (تشير بإبهامها المرتعش)

الباب، الباب!

الزائرة : ماذا؟

السيدة شيبستو : (محاولة التحكم في نفسها) أغربي، وإلا طرحتك خارج البيت.

(ينطلق جرس الباب، فتتسمر المرأتان في مكانهما، تواجه كل منهما الأخرى، ثم تتمالك السيدة شيبستو نفسها وتغادر الحجرة بتؤدة. يسمع بعد برهة صوت خفق وتشنج يدعو إلى الأسى. يشرئب عنق الزائرة لترى ما الخطب، ثم تندفع نحو الباب وتفتحه برجة شديدة فترى السيدة شيبستو تمسك بيدها خطابا ولا تقوى رجلاها على حملها وكأنها تتداعى للسقوط)

الزائرة : (في عاطفة هستيرية جياشة) كنت على حق! عرفت ذلك! الشكر لك يا رب! كنت على حق! كنت على حق!

(تدخل السيدة شيبستو الحجرة، فتبدو كامرأة عليلة سقيمة، وتتقدم بخطى بطيئة مترنحة. تستعيد الزائرة رباطة جأشها فجأة، لكنها لا تحرك ساكنا إلا أنفاسها السريعة المتلاحقة وانتفاض شفتيها بشكل عصبي)

السيدة شيبستو : (بصوت يخلو تماما من المشاعر) دعيني أرَ خطابك.

الزائرة : نعم. نعم. بالطبع. (تناولها إياه)

التاسع والعشرون من سبتمبر. ابنك

الزائرة : لا. بل ابنك أنت.

السيدة شيبستو : (بنفس النبرة الخالية المتجردة من الأحاسيس) ابني.. لقي مصرعه في الثاني من أكتوبر في لوس.

الزائرة : (بصوت خفيض، خافت وشاحب) ماذا؟

السيدة شيبستو : لوس. الثاني من أكتوبر.

الزائرة : (في هلع) أعطني الخطابين.

(تخطفهما من اليد الباردة للسيدة شيبستو وتقارنهما، ثم تطلق صرخة من نياط قلبها)

كلاهما!

السيدة شيبستو : (بإذعان وتسليم)

كلاهما.

الزائرة : (يفلت الخطابان من يدها، فيسقطان على أرضية المنزل)

آه! يا إلهي!

(تسود فترة صمت وجيزة تواجه خلالها المرأتان كل منهما الأخرى، أيديهما مطبقة بعصبية وفماهما فاغران بعض الشيء وكأنهما وحشان في وضع الانقضاض. في هذه اللحظة بدت كلتاهما أكبر من عمرها الحقيقي بشكل كبير، وأخذت أنفاس السيدة شيبستو تتصاعد وتتعاقب على نحو سريع في مواجهة السيدة الأخرى التي راحت تلهث كأرنب في مواجهة ثعبان. بعد انقضاء برهة يبدأ الندب والنحيب والعويل وتنهار كل منهما في أحضان الأخرى)

السيدة شيبستو : أيتها المرأة المسكينة! أيتها المرأة المسكينة!

(ستار)

***